في الاسماء المؤنثة لابن الحاجب

إحسان جعفر
(سورية)

الأسماء المعربة والصفات (المشتقة) المؤنثة في اللغة العربية تُعرف من حملها لإحدَى علامات التأنيث ، وهي التاء كشجرة ، والألف المقصورة كالشَّعْرى ، والألف الممدودة كصحراء ، ومن السهل تمييزها كشمس ، ونار ، ورأس ، وبطن ، وطريق . بعضها يعد مذكراً ، وبعضها مؤنثاً ، وبعضها يجوز فيه الوجهان : التذكير والتأنيث ؛ فكلّ من البطن والرأس والفم والباب — مثلاً — مذكر . وكلّ من العين والأذن والدار والشمس — مثلاً — مؤنث . وكلّ من السبيل والطريق والصراط والسِّكّ يجوز تذكيره وتأنيثه . والواقع أنّ تذكير هذه الألفاظ وتأنيثها لا يمتّ إلى المنطق بصلة ، وانّ الخيال وحده قد خلع على بعض الأشياء الجامدة سمات الأشخاص ، فأنّث بعضها ، وذكّر بعضها الآخر تبعاً لتصوره كلا منها ، ومن هنا كان اختلاف لغة الحجاز ، ولغة تميم في تذكير بعض الأسماء وتأنيثها ، فعلى حين يقول أهل الحجاز : هي التمر ، وهي البر ، وهي الشعير ، وهي الذهب ، وهي البسر ، تذكّر تميم هذه الألفاظ ...

ونحن نستطيع بمثل هذا التعليل أن نفهم تقسيم المؤنث إلى حقيقي ومجازي ، وعليه فتُقدر تاء التأنيث في بعض الأسماء ، فإن كان الاسم لمن تعقل كان التأنيث حقيقياً كدعد وزينب ، وإن لم يكن كذلك كان مجازياً كشمس وأُذُن ، قال ابن مالك :

* وفي أسام قدروا التا كالكتف *

ويستدلّ على التأنيث المجازي بضمير المؤنث ، أو إشارته ، أو لحوق التاء بفعله مثل هذه الشمس رأيتها طلعت ، أو ظهور التاء في تصغيره كأُذَيْنة ، أو حذفها من اسم عدده كأربع آذان ، والمؤنثات المجازية ألفاظ محصورة سُمعت عن العرب ، فيُقتصر عليها ، ويمكن الرجوع بشأنها إلى كتب المذكر والمؤنث مثل :

1) كتاب المذكر والمؤنث للفراء (المطبعة العلمية بحلب سنة 1345هـ)

2) كتاب المذكر والمؤنث للمبرد (تحقيق د. رمضان عبد التواب ، مطبعة دار الكتب بمصر 1970م) .

3) البلغة في الفرق بين المؤنث والمذكر لأبي البركات ابن الأنباري ، (تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ، مطبعة دار الكتب بمصر 1970) .

4) رسالة في المؤنثات السماعية لنور الدين بن نعمة الله الحسيني (ضمن كتاب البلغة في شذور اللغة ، نشر هنر وشيخو ، بيروت 1914)

وقد نظم ابن الحاجب[1] المؤنثات السماعية المشهورة في قصيدة أثبتها فيما يلي نقلاً عن مجموع خطي وجدتها فيه ، وإنّما أوردُها دحضاً لمن زعم[2] أن في لغتنا مئات ومئات من أسماء الجمادات لا تعرف أمذكر هي أم مؤنث ؟؟! ومن ثَمَّ دعا إلى أن نعفي الناس من تخطئتهم عندما يخالفون اعتبارات التذكير والتأنيث على النحو الذي تسير عليه اللغة العربية .

قال ابن الحاجب (من البحر الكامل) :

نَفْسي الفداء لِسائلٍ وافاني
بمسائلٍ فاحتْ كروضِ جنانِ
أسماءُ تأنيثٍ بغيرِ علامةٍ
هي يا فتىً في عُرفهم ضَرْبانِ
قدْ كان منها ما يُؤنثُ ثمَّ ما
خُيِّرتَ فيه لاختلاف معانِ
أمَّا الذي لابُدَّ من تأنيثهِ
ستُّون شبه العَيْن[3] والأُذُنانِ
والنفسُ ثمَّ الدّار ثم الدّلو من
أعدادها والسِّن[4] والكتِفانِ
وجَهَنَّمُ ثمَّ السَّعير[5] وعقْربٌ
والأرضُ ثُمَّ الآست[6] والعضدانِ
ثم الجحيمُ[7] ونارُها ثم العصا
والرّيحُ[8] منها واللظَى وَيَدَانِ
والغُولُ والفِرْدَوسُ والفُلْكُ التي
في البحرِ ، وهي في القرآنِ
وعَروضُ[9] شعرٍ والذِّراعُ وثعلبٌ
والسِّلْحُ ثم الفأسُ والوركانِ
والقوسُ ثم المنجنيقُ وأرنبٌ
والخَمرُ ثم البِئْرُ والفخذانِ
وكذاكَ في ذَهَبٍ وفِهْرٍ[10] حكمُهم
أبداً ، وفي ضَرَبٍ[11] بكلِّ مكانِ

---

(1) ابن الحاجب : هو جمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر المتوفي سنة 646هـ ، ولد بصعيد مصر سنة 570هـ ، ونشأ بالقاهرة ، له مصنفات كثيرة وجاءت شهرته بما صنفه في النحو ، وأهم مصنفاته فيه الكافية ، والشافية ، وهما مطبوعتان بشرح الرضي ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة من أماليه النحوية في أكثر من ستمائة وخمسين صفحة . ولابن الحاجب آراء كثيرة اتفق فيها مع بعض النحاة ، وأخرى خالف فيها جمهورهم .

(2) انظر : المذكر والمؤنث مجازياً «اقتراح» بقلم محمد خليفة التونسي ، مجلة العربي ، العدد 268 ، الصفحة 134 .

(3) العين : مؤنث ، سواء أكانت بمعنَى الباصرة أم كانت لعين الماء ، وللعين في اللغة العربية (48) معنى .

(4) من الفم ، وكذا السن بمعنَى العمر ، لأنها بمعنَى المدة ، يقال : كبرت سني ، والأسنان كلها إناث إلاَّ الأضراس والأنياب فإنها ذكران .

(5) السعير : النار ، قال تعالى : «وسيصلون سعيرا» .

(6) النحل : أنثَى ، قال عز وجل : «وأوحَى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا» .

(7) الجحيم : النار الشديدة التأجج قال جل ثناؤه : «فإن الجحيم هي المأوَى» وقال : «وإذا الجحيم سُعِّرت» ، والكتّاب اليوم يذكرون الجحيم ، وهو خطأ .

(8) جميع أسماء الرياح مؤنثات مجازية ماعدا الاعصار فذكر .

(9) عروض الشعر وغيره أنثَى كما قال الشاعر :

ومازال سوطي في قرابي ومحجني ومازلت منهم في عروض أذودها

والعروض هنا الناقة ، وللعروض معان كثيرة منها : الطريق ، وميزان الشعر ، والجدي ، والتيس ، والسحاب ، والطعام ...

(10) الفِهْر : الحجر .

(11) الضرب : العسل الأبيض يقال : الضَّرَب البيضاء .

والـعـينُ لـلـينبوعِ والـدِّرعُ التي
هي من حـديـدٍ قـطّ والقدمان
وكذاك في كَبِدٍ، وفي كَرِش، وفي
سَقَرٍ[13]، ومنها الحربُ والنّعلانِ
وكذاك في فرسٍ، وفي كأسٍ وفي
أفعَى، ومنها الشّمسُ والعِقبانِ
والعنكبوتُ[13] تحوكُ والموسَى معاً
ثم اليمينُ، وإصْبَع[14] الإنسانِ
والـرّجـل منهـا والسّـراويـلُ التي
في الرِّجل كانتْ زينة العريانِ
وكذا الشّمال من الإناسِ، ومثلها
ضَـبُـع، ومنهـا الـكـفّ والسّـاقـانِ
أمّـا الذي قد كُنْتَ فيه مُخَيَّراً
هُوَ كَانَ سَبْعَةَ عَشَرَ في التبيانِ
السِّلْمُ[15] ثم المِسْكُ ثم القِدْرُ[16] في
لُغَةٍ، ومِثْل الحال[17] كلّ أوان
والـلـيثُ منهـا والـطـريـق وكالسُّرى
ويُـقـالُ في عُنُقٍ كذا ولسانِ[18]
وكذاكَ أسْماء الليالي والضُّحَى[19]
وكـذا السِّلاح لِـفَـاتكٍ طـعـانِ
والحِكْمُ هذا في القَفَا أبَداً وفي
رَجِـمٍ وفي السِّـكين والسِّـلـطـانِ
وَقَصيـدتي تـبـقَى، وإنّي اكتسي
ثـوبَ الـفـنـاء، وكـلُّ شيءٍ فانِ

وبهذا نكون قد انفردنا لأول مرة بنشر الرواية الصحيحة ، الموثقة ، لقصيدة ابن الحاجب الموشّحة بالمؤنثات السّماعية ، وكان لويس شيخو مدير مجلة المشرق قد نشرها بدون اعتناء سنة 1908 في بيروت ، وأعاد طبعها في كتاب «البلغة في شذور اللغة» سنة 1914 ، بيد أنّ طبعته السّقيمة جاءت مشحونة بالتحريفات ، ومليئة بالأخطاء الشنيعة ، فضلاً عن تصحيف معظم ألفاظها ،

---

(12) هي جهنم ، معرفة ممنوعة من الصرف قال تعالى : «وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر» .

(13) العنكبوت : مؤنثة واحدة كقول الله عز وجل : «كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً» .

(14) الأصابع : إناث كلهن إلا الإبهام فإن العرب على تأنيثها إلا بني أسد أو بعضهم فإنهم يقولون : هذا إبهام ، والتأنيث أجود .

(15) بمعنى الصلح .

(16) القِدر : أنثى ، ويذكرها بعض قيس .

(17) الحال : أنثى ، وأهل الحجاز يذكرونها ، وربما أدخلوا فيها الهاء قال الشاعر :

على حالةٍ لو أن في القوم حاتماً على جودِهِ لضنَّ بـالماء حـاتم

(18) اللسان يذكر ، وربما أنث وإذا قصدوا باللسان قصد الرسالة أو القصيدة . (أو اللغة) قال الشاعر :

لسـان المرء تهديها إلـيـنـا وجِئْتَ وما حسبتُك أن تخينا

ويروى لسان السوء ، وقال الآخر :

أتـتني لسـان بني عـامـر أحـاديثهـا بـعـد قولِ نُـكُـر

وذكّرها الحطيئة فقال :

نـدمتُ على لسـان كـان مني فليت بأنه في جوف عِكْم

وأما اللسان بعينه فلم يسمع من العرب إلّا مذكراً ، ومَنْ جَمع اللسان المذكر قال في جمعه «ألسنة» وجمعه الكثير «لُسُن» ، ومن أنّث فيجمع على «ألسن» .

(19) الضحَى : أنثى يقال ارتفعت الضحَى ، وتصغيرها ضُحَيًّا بغير الهاء كأنهم كرهوا أن يشبه تصغيرها تصغير ضَحْوة ، قال الشاعر :

يـفـعـتُ خُـلَـيْقاً بعدما اشتدت الضحَى بمرتـقـبٍ عـالي الـنّـشـاز رفـيـع

ومعنَى يفعت ارتفعت و(خليقا) اسم جبل .

ولا أدري كيف أجاز لنفسه أن ينشرها بتلك التشويهات فغدت عنده أسماء عديدة مذكرة لا يجوز تأنيثها مؤنثة ، والعكس أيضاً ، ومما يؤسف أنّ أحد الدارسين ، فهو عصام نور الدين نقل قصيدة ابن الحاجب المذكورة من كتاب شيخو ، وضمنها كتابه «أبنية الفعل في شافية ابن الحاجب» الصادر حديثاً في بيروت ، وهو عبارة عن رسالة دكتوراه ، ويلوح أنه لم ينتبه إلى الأخطاء الواقعة فيها ، ونأمل منه تصحيحها في طبعة الكتاب القادمة .

وكما رأيتَ فإنَّ الأسماء المؤنثةَ مجازيّاً المتداولة في عربيتنا اليوم التي وشح ابن الحاجب بها قصيدته لا تعدّ أكثر من ستين اسماً يزاد عليها أسماء البلدان ، وحروف الهجاء ، والحروف نحو : في وعلى ... وتسويغ إجازة تذكيرها وتأنيثها مردود ، وانّ الاقتراح الذي طالعناه مؤخراً بهذا الشأن ، يسقط فيما إذا حُصرت هذه الأسماء ، وتمتْ معرفتها وضُربَ صفحاً عمَّا اختُلِفَ فيه ، وجاء بلهجاتٍ ضعيفةٍ لا يُعتدّ بها ، أو كان من متروك الكلام ومهجوره .

المراجع

1) المذكر والمؤنث للفراء (حلب 1345هـ) .
2) المذكر والمؤنث للمبرد (مصر 1970) .
3) مختصر الوجوه في اللغة للخوارزمي المطبعة العلمية بحلب سنة 1345هـ .
4) أزهار الفصحَى في دقائق اللغة لعباس أبو السعود ، دار المعارف بمصر 1970 .
5) مجلة العربي ، العدد 268 .
6) دراسات في فقه اللغة ، د. صبحي الصالح .
7) المدارس النحوية لشوقي ضيف .
8) كتاب خط قديم .